«الأزمنة الحديثة» وعلم النفس

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

شهد كثير من الناس في الآونة الأخيرة «فيلماً» طريفاً يحمل عنوان «الأزمنة الحديثة». وقد كان هذا الفيلم مناسبة سخية للضحك العريض. غير انه كان في الوقت نفسه باعثاً على التأمل العميق.

إن موضوعه ليس بالجديد، غير ان الجديد فيه انه يعرض هذا الموضوع عرضاً سيمائياً موفقاً.

ومع ذلك ورغم تقادم عهد هذه المشكلة الانسانية التي تثيرها هذه الرواية، يظل الموضوع جديداً، ويظل غنياً.

فالمشكلة ما تزال قائمة، بل هي تزداد انتشاراً وتعقيداً يوماً بعد يوم.

وما هي تلك المشكلة؟ إنها، بالحروف الكبيرة، مشكلة الإنسان الذى يبحث عن سعادته في العصر الحديث، عصر الآلة والصناعة. أما اذا اردنا قدراً اكبر من التخصيص، قلنا إن المشكلة هي مشكلة العمل والعمال، مشكلة الشروط الصعبة التي يحيا فيها العمال في عصر طغت عليه الآلة، واصبح العامل مثقلاً بكاهلها، ذائباً ضمنها.

لقد تحدث الكتّاب، على اختلاف منازعهم منذ نهاية القرن الماضي، عن هذه المسألة الإنسانية التي يواجهها الإنسان الحديث، خالق الآلة والصناعة. ولقد نهضت هذه المسألة اقلام الأدباء والفلاسفة والساسة وعلماء النفس. لقد ادركوا جميعاً ان الانقلاب الصناعي الكبير الذي تم في العصر الحديث جعل العمال عناصر مهملة ضمن عجلة النتاج الصناعي، بل جعلهم أجزاء من هذه الآلة لا يزيدون كثيراً على الأجزاء المكونة للآلات.

لقد ألقت هذه الآلة ثقلها الضخم على هؤلاء العمال فغدا كل ما يطلب اليهم ان يشتركوا مع أجزاء هذه الآلة في تسيير دواليب النتاج الصناعي، وأن ينتجوا أقصى ما يستطيعون ان يقدموه الى اصحاب رؤوس الأموال، وإن لم يفعلوا حُطموا وانتزعوا كما تنتزع الآلة القديمة البالية، أو كما ترمى البرتقالة التي اعتصر ماؤها.

وهكذا غدت الآلة التي كان مقدراً لها ان تكون في خدمة الإنسان، سيدة الإنسان، الإنسان العامل الذي يكوّن الشطر الأكبر من الناس. وأصبح الإنسان مجعولاً للآلة، مخلوقاً لخدمتها، بدلا من ان تكون الآلة في خدمته. وأهمل العنصر الإنساني تماماً، واتجهت الأنظار شطر زيادة النتاج والحصول على اكبر ربح ممكن.

وازدادت المسألة تعقيداً على تعقيد، عندما حاول بعض المهندسين وبعض رجال الصناعة ان يشرفوا على تنظيم العمل الصناعي وان يحددوا طراز الصلات التي ينبغي ان تقوم بين الآلة والإنسان. فقد كان هدف هؤلاء المهندسين ومن حولهم من رجال الصناعة ان يعنوا بدراسة العمل الصناعي دراسة تجعلهم يفرضون على العمال أكبر نتاج ممكن، وتجعلهم بالتالي يحصلون على أكبر قدر من الأرباح. وهكذا أمعن هؤلاء في إهمال العنصر الانساني، وضيقوا من نطاق الإنسان ودوره، وجعلوا مثلهم الأعلى ان يشتغل هذا الإنسان كآلة تفرض عليها حركات معينة وسرعات معينة. وكان كل ما يرجونه ان يصل العامل الى انجاز بعض الأعمال الجزئية المحدودة إنجازاً دقيقاً سريعاً، دون ان يعي من الأمر غير هذا، ودون ان يدرك مدى هذه الأعمال الجزئية وهدفها النهائي.

وكلنا يعرف كيف مثّل «تايلور Taylor» الأميركي نزعة رجال الصناعة هذه خير تمثيل عن طريق التنظيم العلمي للعمل الذي عرف باسمه فيما بعد، فدعي بالتايلورية. لقد كان هدف «تايلور» هذا الهدف الذي أشرنا اليه، نعني كسب الوقت والوصول الى أكبر مردود ممكن بأقل النفقات المادية الممكنة. وقد توسل الى هذه الغاية بوسيلتين أساسيتين: الأولى ان نجنب العامل كل حركة زائدة لا فائدة منها وأن نفرض عليه الحركات التي يستبين لنا، بعد ان نجيد تحليلها، أنها أكثر الحركات اقتصاداً.

بحث الشهر العلمي

والثانية ان ننظم سرعة الحركات وإتباع العمل لدى العامل تنظيماً نستند فيه الى السرعة التي نحصل عليها لدى أكثر العمال سرعة .

وقد أدت هذه المبادىء التي شرعها « تايلور » ، على بساطتها في الظاهر ، الى نتائج خطيرة ذات بال . فقد أدت الى لفظ العمال الذين لا يصلحون لهذا التنظيم المتفق عليه والذين لا نصل الى ترويضهم عليه .

وبهذا قادت الى ضرب من الاصطفاء المهني ، نبعد فيه العمال الذين لا يتكيفون مع النظام الآلي المفروض ، او الذين أصبحوا عاجزين على التكيف بعد سنوات طويلة من العمل المضني ، او بعد « إهترائهم » على حد تعبير « تايلور » نفسه.

ونحن نرى في بطل الرواية التي نشير اليها ، رواية «الأزمنة الحديثة» (ويقوم بتمثيل دوره الممثل الفكاهي تشارلي شابلن) صورة حية عن العامل الذي يعيش ضمن نظام كنظام «تايلور» .

ان هذا العامل الذي يلعب الدور الأول في الرواية ، يقوم خلال ساعات طويلة بانفاذ حركة واحدة بيديه ، تتكرر على وتيرة واحدة طوال النهار . ويصل به الامعان في هذا العمل الآلي الرتيب الى ان تصبح هذه الحركة التي يقوم بها عادة ثانية لديه فيكررها ويعيدها في غير اوقات الشغل ، ويغدو أشبه بآلة تتحرك وتنفذ هذه الحركة ، ولو كانت هذه الآلة خارج المصنع .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نرى المشرف على المصنع ، يطلب الى الذين يديرون الجهاز حداً متزايد من السرعة ، ونجد هذا العامل البائس يحاول شيئاً بعد شيء اللحاق بهذه السرعة التي تفرض عليه في انفاذ حركته .

وهكذا ما يلبث حتى ينقلب الى آلة بليدة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، بل نراه بتأثير هذا العمل الآلي المرهق الذي لا يتناسب في سرعته مع طاقاته الجسدية والنفسية ، والذي لا يجد فيه مجالا للراحة والاسترخاء ، ما يلبث حتى يصاب باضطراب عقلي يجعله فاقد الصواب مقبلا على اعمال وحركات كادت تعرض المصنع للدمار والحريق .

ويساق العامل البائس الى دار الأمراض العقلية ، ويعالج ويشفى بعض الشيء ، وان كانت آثار عمله الآلي القديم ما تزال بادية عليه ، تتجلى في اختلاج يديه ورجليه اختلاجاً يذكر بالحركة الآلية التي كان يكره على انفاذها ، ويتجلى في عربلته في مشيته ، ويغادر المستشفى تائهاً لا يدري أين يمضي ، ويهيم على وجهه في البلد الصاخب ، ويقع في اعمال شائنة ، لم يقصدها ، ويخيل الى رجال الشرطة انه يشترك في بعض المظاهرات ، فيوضع في السجن ، ويساق اليه مراراً ، ويقضي حياته بينه وبين الشارع .

وما نود ان نفصل في وصف صورة هذا العامل البائس على نحو ما تعرضه الرواية . وحسبنا ان نقول انه غدا انساناً فاشلا بليداً ، بل غدا معرّضاً للوقوع في آثام تسيء اليه والى المجتمع . وحسبنا ان نقول قبل هذا انه صورة «كاريكاتورية» لملايين مثله ، تقذف بهم عجلة الصناعة كل يوم ، وتدعهم يتحملون مصيرهم السيء ، بعد ان أفسدت كل ومضة انسانية لديهم .

مثل هذه المآسي هي التي حملت علماء النفس على النظر الى مشكلة الصناعة من زاوية اخرى مباينة للزاوية التي ينظر منها رجال الصناعة . فبينما كان هؤلاء ينظرون نظرة ضيقة ، ظاهرها مصلحة العمل والنتاج على حساب العامل ، وباطنها الإساءة للجانبين ، العمل والعمال ، أخذ علماء النفس ينظرون نظرة توحد بين مصلحة العامل والعمل وحدة اساسها العامل والعنصر الإنساني في العمل .

فلقد بدأوا من هذه الحقيقة وهي ان العامل ، وهو العنصر الاول في المعمل ، ينبغي ألا يُهمل ، واذا هو أهمل ادى ذلك الى اضرار بالعمل الى جانب الأضرار التي تعود على هذا العامل نفسه .

هتلر .. القائد العسكري
يجند جيشاً من الفراة والعاريات !
لخلق جيل قوي ، جميل ، جريء .
● الإباحية التي اعتنقها الدكتاتور الألماني وطبقها في شعبه .
إقرأها في كتاب :
عذاري هتلر
١٣٠ صفحة - توزيع المكتب التجاري - ١٠٠ ق.ل.

فالعامل هو النسغ المغذي للمعمل ، فاذا فسد فسدت الشجرة كلها .

وهكذا بينوا عن طريق ابحاثهم التجريبية المتتالية كيف أن إهمال العامل ، وعدم رعاية حاجاته الجسدية والنفسية والإجتماعية يؤديان لا محالة الى نقص في نتاج المعمل والى زيادة في عدد الكوارث التي يقع فيها العامل اثناء العمل . بينما تؤدي العناية بالعامل وجعل العمل مستجيباً لبنيته الجسدية والنفسية ولمطالبه الإجتماعية الى زيادة اكيدة في النتاج ونقص مقدر في الكوارث .

إنهم بينوا ان الظروف المادية التي يتم فيها العمل (من حرارة وتهوية ونور وضجيج وسرعة الخ ...) والشروط النفسية التي يجري فيها (من مثل الملل وجو المصنع العام ، وفترات الراحة ، والموسيقى الخ ...) ذات أثر بيّن في نتائج العمل ، سواء فيما يتصل بالنتاج او التعب او فيما يتصل بكوارث العمل :

هكذا بيّن باحث مثل « بيدفورد Bedford » عن طريق دراسته لنتاج عمال المناجم البريطانيين الذين يعملون في مناجم تختلف عمقاً ، ان نسبة النتاج ترتفع من ١٧٪ في درجة حرارة قدرها ٤٢ ، والى ٥٩٪ في درجة حرارة قدرها ٢٨ . ومثل هذه النتيجة وصل اليها « مايرز Mayers » في مناجم الولايات المتحدة . وأعطت التجارب التي اجريت في المخبر نتائج مماثلة ايضاً اذ بينت ان مردود عمل معين (رفع ثقل مثلا) يهبط من ٦ الى ١ عندما تزداد درجة الحرارة من ١٥ درجة الى ٤٣ درجة . كذلك تبين هذه الدراسات التجريبية أن الإنارة السيئة تؤدي الى ضعف في النتاج من الوجهة الكيفية والكمية معاً والى زيادة نسبة الأخطار والكوارث الناجمة عن العمل والى اشتداد التوتر العصبي . كما قد تؤدي الى بعض انماط التشويه البصري والى ضعف في حدة البصر . بينما تؤدي الإنارة الحسنة المدروسة الى زيادة في المردود تبلغ ٢٠٪ والى زيادة في جودة العمل .

صدر عن دار المكشوف

للجـــاحظ

كتاب مفاخرة الجواري والغلمان

ينشره للمرة الاولى المستشرق شارل بلا

ومثل هذه النتائج توصل اليها كثير من الباحثين فيما يتصل بأثار الضجيج ، وفيما يتصل بسرعة العمل وإيقاعه . اذ من الواضح فيما يتصل بهذا الجانب الأخير ، ان الإنسجام اذا لم يقع بين إيقاع الآلات وإيقاعات الفرد العضوية الحيوية ، الفينا ظهور توتر وتناقص في القدرة على العمل . بينما يساعد الايقاع على العكس ، عمل العامل عندما نجعله ملائماً له ، كما بيّن « هاردين D. W. Harding » خاصة في دراسة له عن الايقاع لدى الضاربين على الآلة الكاتبة . ومثل هذه النتائج توصل اليها « والتر L. Walter » عندما كون فرقاً من العمل في مصنع ساعات ، يجمع بين كل فريق منها الايقاع المشترك . فوجد ان هنالك تناقصاً كبيراً في الأخطاء وتزايداً في النتاج بنتيجة هذا التنسيق .

وتؤيد هذه التجارب التي أجريت حول أثر الشروط المادية للعمل التجارب الأخرى التي تمت حول شروطه النفسية . فلقد درس كثير من الباحثين الملل وأشكاله والأوقات التي يظهر فيها ، وكشفوا عن آثاره المتصلة بنقص النتاج وبفساده ، كما بينوا كيف يؤدي تغيير العمل وتنويعه وطرح طابعه الرتيب الممل الى زيادة في المردود تبلغ ١٠ ٪ .

ودرس هؤلاء الباحثون أيضاً آثار الجو العام الذي يغمر المصنع ومكتبه ، ودرسوا بين هذه الآثار أثر الألوان خاصة (لون الجدران والآلات وغيرها) . وقد لاحظ العلماء في معامل « فورد Ford » حيث درست هذه الناحية دراسة خاصة ، زيادة في النتاج تبلغ نسبة قدرها ١٠ الى ٢٠ ٪ ، في المصانع التي نظمت فيها الآلات تنظيماً صحيحاً . كذلك لوحظ تناقص واضح في عدد الكوارث حين توضع ألوان خاصة حول بعض اجزاء الآلات ، ولا سيما في المواضع الخطرة منها . ولهذا نرى الأجزاء الخطرة من العجلات والثاقبات في معمل « فورد » ملونة باللون الأبيض .

وقد استبان لهؤلاء العلماء ان خير عوامل زيادة العمل الموسيقى ، فهي قد تزيد المردود بنسبة تبلغ ٦ الى ١١ ٪ . ووجدوا ان احسن النتاج يكون عندما تقدم الموسيقى خلال ساعة وربع في منتصف العمل . وقد حاول مدير شركة من شركات الاعلانات فيها عمل مرهق ، ان يقدم برامج موسيقية وجوائز ، فارتفع نتاج العمال بسبب ذلك بنسبة قدرها ٢٠ ٪ . كذلك أدى تشغيل عدد من الأسطوانات في مركز رئيسي من

مراكز البريد مثقل بفرز عدد ضخم من الرسائل الى نقص في عدد الأخطاء بلغ حوالي ١٣ ٪ ، والى هبوط في عدد الساعات التي يحتاج اليها هذا العمل . وفي معمل شرطان حديدية أدى الاستماع الى موسيقى تقدم في الساعة العاشرة صباحاً وفي الساعة الثالثة بعد الظهر الى ارتفاع بيّن في النتاج . ومثل هذا الارتفاع قاد اليه الاستماع الى اسطوانات موزعة على ساعات النهار في معمل « شوكولاته » .

والأمثلة أكثر من تحصى على هذه التجارب التي أراد علماء النفس ان يثبتوا عن طريقها ما لتنظيم العمل تنظيماً متجاوباً مع حاجات العامل من آثار طيبة في العمل نفسه . ولا حاجة بعد هذا الى ان نذكّر بالشروط الاجتماعية والاقتصادية التي درسها هؤلاء العلماء أيضاً فكشفت دراساتهم لها عن أثرها البيّن في حسن عمل العامل . فمما لا يحتاج الى بيان ان مشكلة العامل ليست مشكلة فردية خالصة ، وان للعوامل الاجتماعية والإقتصادية التي يحيا فيها أثراً في سلوكه (فالمكافأة ، والترقية ، وفترات البطالة ، وتقلبات تكاليف الحياة ، والأجور ، والصلة بين العمال ، والصلة بين هؤلاء وأصحاب المعامل ، وإسهام العمال في إدارة المصنع أو في نسبة مئوية من الأرباح ، امور لها شأن في نتاج المعمل) .

ولم يكتف علماء النفس في هذا كله بدراسة الشرائط المادية والنفسية والإجتماعية التي تفعل فعلها في النتاج كماً وكيفاً وفي الكوارث ونسبتها ، بل تجاوزوا هذا الى دراسة الآثار البينة لقابليات العمال في هذا النتاج وفي تلك الكوارث . وقد استبان لهم ان خير العمال نتاجاً هم الذين يملكون قابلية للأعمال التي يقومون بها ، أي الذين أحسن توجيههم منذ البداية ، فسيقوا شطر المهن التي هم لها اهيأ . ولهذا كان للتوجيه المهني الذي يدفع به الأشخاص شطر الأعمال التي يملكون قابلية حقيقية لها ، شأن واسع في العمل الصناعي ، وكانت مراكز التوجيه المهني قائمة في أكثر المصانع الحديثة وغير المصانع .

ويطول بنا الحديث إن اردنا ان نفصّل في ما للتوجيه المهني من شأن في حياة الأفراد عامة وحياة العمال خاصة . وحسبنا في هذه النظرة السريعة ان نشير الى امهات المسائل التي يطرحها العمل ، وأن نذكر مما كشفت عنه الأبحاث النفسية الحديثة من آثار عميقة يؤدي اليها الاهتمام بالعنصر الإنساني في العمل .

وهكذا تغيرت النظرة اليوم الى الصلة بين العمال وعملهم فبعد ان كان رجال الصناعة يحسبون ان مصلحة العمل شيء ومصلحة العمال شيء آخر ، كشفت لهم الدراسات النفسية الحديثة عن الصلة العميقة بين كلتا المصلحتين ، وبينت لهم خير بيان ان الإنسان لا يعمل كما تعمل الآلة ، ولا بد من ارواء منازعه وحاجاته الجسدية والنفسية والاجتماعية إن نحن اردناه منتجاً فعالا خلاقاً .

وبهذا انتهت هذه الأبحاث النفسية العلمية الى نتائج اجتماعية ذات بال . ونعتقد ان اهمال العنصر الإنساني في كل مجال من

صدر حديثاً

المسرحية في الادب العربي الحديث

الكتاب الذي نال جائزة جامعة الدول العربية

تأليف الدكتور محمد يوسف نجم

٧٠٠ ق ل

•

فن المقالة

الكتاب الرابع من مجموعة النقد الادبي

تأليف الدكتور محمد يوسف نجم

٢٠٠ ق.ل

•

برنارد شو

العقل الساخر

تأليف الاستاذ عبد اللطيف شراره

٢٧٥ ق.ل

منشورات دار بيروت

المسلمون في العالم

١ ـ المسلمون في المتوسط الشرقي

٢ ـ المسلمون في آسيا

دار المكشوف ، بيروت

مجالات الحياة عندنا هو المسؤول عن عقم الشطر الاكبر من النشاط ، وهو المسؤول عن طمس كثير من الكفاءات وقتل العديد من النفوس التي كان في وسعها ان تبدع وتتفتح وتزكو ، لو فسح لها مجال صالح لاستخدام ثرواتها الإنسانية وحاجاتها الطبيعية .

ان سعادة الإنسان في عهد الآلة ، وثيقة الصلة باغناء وجوده الانساني ورعاية حاجاته ومنازعه . ومن اعمق الدروس التي يقدمها لنا علماء النفس ما للعناية بالجانب الانساني النفسي من آثار في تخفيف وطأة « الأزمنة الحديثة » ، وفي احلال الإبداع والجهد الفرح الخلاق محل العمل القسري الآلي.

وهكذا يحمل علم النفس في نظرنا معاني انسانية عميقة ، لأنه يبدأ دوماً من حاجات الانسان ، ومن دوافعه العميقة ، وينبغي تنظيم شتى مجالات الحياة البشرية تنظيماً يستند الى تلك الحاجات والدوافع . وقد آن الآوان ، فيما نعتقد ، للكشف شيئاً بعد شيء ، عن النتائج الاجتماعية والانسانية العميقة التي يقود اليها هذا العلم .

ان كل علم ، بعد ان تكمل حقائقه ، يصل الى تطبيقات عملية . وخير تطبيقات علم النفس العملية تلك المجالات الإجتماعية والانسانية التي يفتحها ، وتلك المعاني الحضارية الجديدة التي يحمل عبقها . انه محمّل بطبعه بنتائج تستقي جذورها من الانسان ، من وجوده الانساني العميق ، بل من الفلسفة الانسانية العميقة في نهاية المطاف .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**

تطلب « الآداب »

في مدينة « فاس »

بمراكش

من مكتبة العلمي

زقاق لهجر ٥١

صدر عن دار الكتاب اللبناني

تاريخ العلامة ابن خلدون

وقد صدر اخيرا

الجزء الثامن (القسم الثالث من المجلد الثاني)

حقق وقوبل على نسخة باريس الخطية المكتوبة بخط ابن خلدون

ولا تنسوا انه صدر الجزء الخامس وهو نهاية المجلد الاول (المقدمة) وهذا الجزء مذيل بفهارس المقدمة

التي وضعها وقدم لها بكلمة عامة الاستاذ يوسف اسعد داغر امين دار الكتب اللبنانية سابقاً الاختصاصي بفن تنظيم المكاتب وعلم الببليوغرافيا

وتتضمن هذه الفهارس الى جانب المصادر والمراجع الاجنبية والعربية لدراسة ابن خلدون

١ — فهرس الموضوعات ٢ — فهرس اعلام الرجال والنساء ٣ — فهرس الشعوب والقبائل والدول والاسر ٤ — فهرس البلدان والامكنة الجغرافية ٥ — فهرس الكواكب والنجوم والابراج الفلكية ٦ — فهرس الحيوان ٧ — فهرس النبات ٨ — فهرس المعادن والجواهر والحجارة الكريمة ٩ — فهرس اسماء الكتب الواردة في المقدمة ١٠ — فهرس آي القرآن الكريم والاحاديث النبوية ١١ — فهرس المواد .

منشورات دار الكتاب اللبناني

بيروت ص . ب ٣١٧٦ — هاتف ٢٧٩٧٣